الاستقلال والانقلابات العسكرية

اليوم قابلت قطبا من أقطاب الرجعية تعرفينه. عرفتك عليه عدة مرات في الطريق، الأستاذ فلان. ضحكت حين رأيته. كنت أستعد لمزاح ثقيل معه فابتدرني قائلا:

"خرب الله بيت الأميركان. نيو جرسي طويلة عريضة تقصف المدن، كاذبون، لا يخرجون الا الصوت والضوء.. معركة وهمية!". تصوري، أميركا، عالمهم، آمالهم، سندهم، لا شيء. ليست الا وهما. في رأيه أن مجرد مرور نيوجرسي من الساحل اللبناني يجب أن يدك الأرض. خيبة أمل مريرة. تبهدلت أميركا يوم استخدمت أساليب الاستعمار القديم. عندما جاؤوا الى المنطقة قالوا للإنجليز "أخرجوا أنتم وبغالكم، جاء دورنا" كان معهم الدولارات، وعسكر البلد تقوم بواجب الدركي عنهم. أيديهم كانت نظيفة، أما اليوم فهم يمارسون أساليب الماضي وهنا مطعنهم. تصوري. ان هذا الرجعي يشتمهم. كنت أمزح معه، أعرفه "ابن وزير ورئيس وزارة سابق" فينتفش. وأضيف "يوم كانت الوزارة تعرض على الكلاب فيرفضونها" فيجن. كان الافرنسيون يأتون بوالده كلما أرادوا ضرب الكتلة الوطنية. وعندما جاء الاستقلال طار كل شيء من يديه. دعاني يوما أنا وأخي "صلاح" الى بيته في الزبداني. كنا ضابطين مرموقين خرجنا لتونا من سجون الفرنسيين. وأكرمنا كثيرا. عندهم بساتين تفاح. والده أقطاعي كبير. دخل علينا يحمل كتابا ألمانيا وأخذ يقرأ لنا منه ويترجم. وجلس أخوه في وضع احترام زائد وبدا عليهما الاعجاب الشديد؛ وعندما خرج غمزهما فسألانا "ما رأيكما بوالدنا؟ " كانا في غيرة من شكري بك. لماذا يبلغ الرئاسة وحده؟ وقد أملا أن نصنع أنا وأخي والضباط انقلابا يضع والدهما في سدة الرئاسة مكان شكري بك. ضحكت وقلت "سخيف!" جن جنونه هو وأخوه "يا لؤماء!" وكنا نضحك. "يا ناكري المعروف، أكلتم طعامنا وتشتموننا؟" ونحن نضحك حتى طقت خواصرنا "أكل الدهر عليكم وشرب يارجعية البلد. ظننتم أميركا تشتريكم! عندها أنماط جديدة مناسبة أكثر منكم". كانت سوريا تمر بفترة من الانقلابات يقوم بها مغامرون عسكريون تافهون. "حسني الزعيم" كان يضع مونوكلا يظن نفسه ضابطا ألمانيا. قال له القباني، ابن عم نزار الشاعر، وكان قنصلنا في مصر (المصريون ملاعين عملوه ضحكة)، "هذا ليس جميلا، انزعه!" لقد وجد عليه، ولما صنع انقلابه، كان أول ما فعله أن سرحه، فالتجأ الى المصريين فوجدوا له عملا في الجامعة العربية، وتقاعد وهو يعمل فيها. وحكى لي رفعت خانكان (وزير دفاع سابق) كيف استدعاه يوما الزعيم ليعرف رأيه في اللباس العسكري الذي صممه خصيصا لمناسبة الانقلاب، وكان يحمل بسطونا من الذهب ويروح ويجيء مختالا أمام المرآة. قال له رفعت "سيدي، انه مزوزق شوي". لم يغفر له هذا الانتقاد بالرغم من صداقة

عمر. الأميركان كانوا يتعاملون مع أمثال هؤلاء الناس يضعون في أيديهم مقاليد الأمور. كل الانقلابات في سوريا كان وراءها الأميركان!..

-وشكري بك أما كانت ميوله أميركية وهو صديق السعوديين؟.

-القوتلي كان يعيش في الأوهام، والأميركان كانوا يخافون الجو الديموقراطي الذي يلازم حكمه. الحقيقة أن الأميركان لم يكونوا يثقون الا بضباط الجيش لفرض هيمنتهم، فليس هناك من فئة أكثر فجورا من كثير من عسكريي العالم الثالث. عرفت الولايات المتحدة كيف تتغلغل بين صفوفهم وتحرفهم. حسني الزعيم كان يقول "ليعطوني خمسمائة مليون دولار وأنا أوقع على تسليم فلسطين!". لم يبق في الحكم أكثر من ثلاثة أشهر. كان في سوريا شعب يحاسب! وهذا الشعب نزل بكل ثقله الى الشارع لطرد الشيشكلي أيضا فاضطر الى الهرب!.

-كيف حدث هذا؟.

-حدث العصيان في الشمال. بدأت أولا حركة رجعية في جبل الدروز ثم تحرك الجيش. عندما شعر الشعب بأن الأمور مالت في غير صالح الدكتاتور، خرج نصف مليون انسان الى الشارع مسلحين. في دمشق وحدها فرغت رئاسة الأركان من الضباط والرقباء والجنود، فلم يجد الشيشكلي جنديا واحدا يمضي على ورقة. أفلت منه الزمام، اجتمع بالوزراء فقالوا له "نحن من أبناء هذا البلد ولا نريد أن نغادرها، جد حلا بدون إهراق دماء. كان الحل أن عليه أن "يفركها."

الشعب دائما في اللحظات الحاسمة يضع ثقله في الميزان لصالح الحكم أو تحطيمه.

عندما اكتشفت المؤامرة الأميركية الثالثة على سوريا باشتراك الشيشكلي وبعض الضباط الرجعيين، كان الجيش في غليان. ذهبت الى رئيس الأركان وقلت له "يجب أن يسرح هؤلاء الضباط من الجيش. قال رئيس الأركان: انني أستقيل " أجبته " نحن آسفون لذلك، ولكن اذا أصررت على الاستقالة فليس لدينا من مانع.

القوتلي كان من عادته أن يتمارض في العهد الديموقراطي يريد أن يعقد الأمور. قال لي "صبري العسلي" عن لسانه: " القوتلي يستقيل اذا أصررتم على تسريح الضباط ". أجبته "الرسول مات وأمة الاسلام عاشت". كنت أعلم أن الرئيس يهدد كي نتراجع، لأنه من غير المعقول بعد اكتشاف المؤامرة وظهور أسماء الضباط الرجعيين فيها أن يستقيل فيقول الشعب أنه مشترك في المؤامرة.

* * *

كنت قد رجعت حديثا من فرنسا عام 1954، وكنت أقوم بتأسيس المصلحة الجغرافية عندما قام الانقلاب على الشيشكلي. أذكر أنني كنت يومها عند رئيس

الأركان شوكت شقير فقلت له: "يجب أن نطلق سراح الضباط الذين سجنهم الشيشكلي (عدنان المالكي ورفاقه في المزة) أما أخي صلاح فكان مسجونا في سجن الشيخ حسن. كان في الغرفة رياض الكيلاني رئيس الشعبة الثالثة، فطلب من رئيس الأركان أن يتريث خوفا من انقلاب مضاد. صحت به: "مم تخاف ؟ ذهب الشيشكلي الى غير رجعة". ثم طلبت من رئيس الأركان أن يعطيني أمرا باطلاق سراحهم وقلت له بأنني سأنقلهم بسيارتي. تلفن شقير الى سجن المزة وأنبأهم بقرب حضوري. أفرج عنهم وكانوا خمسة؛ وفي طريق العودة كنت أقود السيارة في شارع ميسلون عندما سمعت اطلاق النار صادرا عن رئاسة الأركان، فتبرع أحد الضباط للذهاب والاستطلاع، وعاد وقد أصيب بجرح في ساقه، وقال بأن هناك انقلابا مضادا يقوده حسين حدة وشحادة عبد الحق وذهبت بالضباط الى بيتنا في الجسر حيث قمنا بمعالجة الضابط الجريح. وفكرت بأن الانقلاب المضاد اذا نجح، فانهم أول ما يفتشون بيتي ويلقون القبض عليهم ثانية، فذهبت بهم الى بيت صديق لي، وهو محام غير حزبي، ولكنه لم يفتح الباب خوفا على نفسه من المشاكل وادعى فيما بعد أنه لم يسمع رنين الجرس. فغامرت وخبأتهم في بيت صديق لي آخر من عائلة الأتاسي. كان شابا تقدميا أعزب وبيته ملحق على سطوح أحد الأبنية، أما والده فكان وزيرا عند الشيشكلي. اعتمدت في هذا التصرف على ثقتي الشخصية به، وكان أهلا للثقة، فكان بيته أفضل مخبأ بعيد عن الشبهات اذ لا يمكن أن يخطر في بال أحد، ثم انتقلنا من هناك الى حمص.

توثقت علاقتي بعدنان كثيرا بعد هذا وبعد عام كنت في القضاء العسكري لمحاكمة قتلته، ولأعلق في شبكة المؤامرات الأميركية المتلاحقة على سوريا والتي لم تنته حتى قيام الوحدة. وهذه القصص تعرفينها جيدا لأنك عشتها معي .

لم يذهب أحد من المتطوعين الضباط البعثيين الى فلسطين قبل جيش الانقاذ. فمأمون البيطار ذهب معي واستشهد بعد عشرين يوما من دخوله فلسطين. أما المالكي فانه دخل مع الجيش النظامي بعد عام من دخولنا فلسطين .

يتبجح الملك حسين بأنه هو الذي حمى القدس. ان مدفعيتي هي التي حققت الانتصارات في باب الواد وحمت القدس. كان الجيش الأردني مرابطا لا يأتي بحركة، ويجيء أفراد منه ينظرون الينا ولا يشاركون فأوبخهم قائلا: هيا اشتركوا معنا في القتال. هل نحن نلعب "ماتش كرة" حتى تقفوا متفرجين؟ ولكن لم تكن لديهم أوامر بالتحرك حتى تدخل الجيوش العربية. ولما دخلت الجيوش العربية صدر الي الأمر بأن أسلم مواقعي للجيش العربي الأردني، فأسلمت المواقع سليمة، وبعد ذلك بدأت الهزائم وتسليم المدن.

عندما طلبت من سعيد حبي رئيس الشعبة الثانية الالتحاق بجيش الانقاذ سر لابعادي فلعلي لاأعود أبدا من هناك. كان أحد الذين عنيتهم عندما سئلت في الأركان

عن الضباط الذين تعاونوا مع فرنسا فقلت: "لن أذكر أسماءهم حتى لا تكرموهم أكثر مما أكرمتموهم" ورفضت سحب أقوالي بأن جواسيس فرنسا هم الذين يتحكمون في الجيش بعد الاستقلال. كانت الجامعة العربية قد عينت طه باشا الهاشمي وهو عراقي الجنسية لتأليف جيش الانقاذ، وكان مقره في دمشق، ولما ألحقت بالجيش عينت ضابطا لتنظيم العمليات. طلبت من طه باشا الهاشمي أن يعين أديب الشيشكلي قائدا للوحدة الأولى التي دخلت فلسطين، وفي هذه الوحدة كان أكرم الحوراني متطوعا، وقدتهم عبر الطرق الوعرة في جنوب لبنان الى الجليل، ثم عدت لتنظيم فرق المتطوعة الأخرى، ورجعت على رأس المدفعية الى فلسطين.

ان البعث كان دائما يريد أن يأخذ حصة الأسد من المقاعد النيابية في الجبهة الوطنية. قال خليل كلاس "نريد نصف المقاعد!". كنا في مجلس الوزراء فأجبته: جرت انتخابات حرة عادلة فاز منكم فيها سبعة عشر نائبا من مائة وأربعين. وهذا نلتموه بدعمنا نحن الضباط الأحرار في الجيش، فكيف يمكن أن تكون لكم نصف مقاعد الجبهة الوطنية، وبقية الناس أليست لهم حصة؟ ممكن أن نعطيكم عشرين وحتى ثلاثين مقعدا. منذ ذلك الحين توجهوا نحو عبد الناصر والمصريين لعلهم ينالون منهم ما لم يستطيعوا أن ينالوه في الجبهة الوطنية، وعملوا على تخريبها، وكان رائدهم في ذلك محمود رياض.

* * *